

الإصلاح الاجتماعي والتربوي عند الكواكبي

محمد فجة*

تمهيد: "الرجل والعصر"

شهد القرن التاسع عشر جملة من الأحداث والتطورات على المستوى السياسي والفكري والاجتماعي. وتركت هذه الأحداث أثرها في مسار الحركة النهضة العربية التي ظهرت خلال النصف الثاني من القرن نفسه.

فعلى المستوى السياسي كانت أقطار العالم الإسلامي تسير نحو التفكك والانهايار بفعل التدخلات الخارجية والمتاعب الداخلية. في الشرق كانت مملكة الهند الإسلامية تتهاوى تحت ضربات المخططات البريطانية التي استمرت تعمل حتى تم تقسيم شبه جزيرة الهند إلى ثلاث دول خلال القرن العشرين. والهولنديون يحتلون الجزر الأندونيسية، والأسر الحاكمة في إيران وأفغانستان تصطدم بالأطماع الروسية والبريطانية، وكان الشمال الأفريقي عرضة لمؤامرات الاحتلال والتمزيق، فرنسا تحتل الجزائر ثم تونس ثم المغرب، وكذلك أكثر مناطق غرب أفريقيا المسلمة. وبريطانيا تحتل مصر والسودان وكثيراً من دول شرق أفريقيا، وإيطاليا تضع عينها على ليبيا والحبشة. بينما الدولة العثمانية تعيش التراجع والمصاعب بعد قرون من الصراع مع أوربا الطامعة إلى اقتسام ممتلكات السلطنة العثمانية.

وشهد القرن نفسه قيام تجربة محمد علي ومحاويلته ضم بلاد الشام وإجماع الدول الأوروبية على إسقاط تجربته خوفاً من نتائجها على المصالح الأوروبية. ورغم محاولات الإصلاح في الدولة العثمانية، فإن حجم الأمراض كان أكبر من تلك المحاولات، وكانت الدولة تسير نحو نهايتها بخطوات متسارعة.

أما على المستوى الفكري فقد بدأت ملامح يقظة لحركة فكرية إسلامية منذ القرن الثامن عشر، تمثلت ببعض رجال الفكر الداعين إلى الإصلاح، أو الذين أسهموا ببعض المؤلفات والكتابات. ومن أبرز هؤلاء: عبدالرحمن الجبرتي (ت ١٧٤٥ م)، والمرتضى الزبيدي (ت ١٧٩١ م)، ومحمد خليل المرادي (ت ١٧٩١ م)، والشوكانى اليميني (ت ١٨٢٢ م)، وأبو القاسم الزياتي المغربي (ت ١٨٣٤ م) ومحمد بن عبدالوهاب (ت ١٧٩١ م).

* رئيس جمعية العاديات، عضو اتحاد الكتاب العرب، حلب، سورية.

ويلاحظ في هذه الأمثلة لهؤلاء الرجال مدى التنوع الجغرافي والاهتمام الفكري بين التاريخ والدين والأدب والسياسة. وما كان لبعضهم من دور وتأثير في مستويات شتى. ثم تأتي مرحلة ما بعد الاحتلال الفرنسي لمصر على يد نابليون، وتجربة محمد علي، وظهور رجال، مثل: الشيخ حسن العطار، والشيخ رفاعة الطهطاوي.

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ومع التوسع في عملية التعليم والبناء أيام "إسماعيل" في مصر، وفتح قناة السويس وإنشاء الأبنية والسبل والطرق والمدارس ودار الأوبرا، وظهور الصحف، وتبلور طبقة مثقفة أخذت شكل "البورجوازية" - إن جاز التعبير. وكان أن ظهر على الساحة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وخير الدين التونسي وعلي المبارك وفرنسيس مراه وبطرس البستاني، ثم رشيد رضا وفرح أنطون. ورافق ذلك ظهور مدارس وصحافة، وتعليم جامعي، ولكن اللافت أن هذه الأنشطة كانت تلقائية عفوية لم تأت نتيجة برنامج وتخطيط، ولم يتبلور لدى أحد هؤلاء المفكرين مشروع إصلاح متكامل يقدمه بمنهجية وإدراك عميقين. حتى إذا جاء الكواكبي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بلور في صحافته وكتبه ما يمكن أن ندعوه منهجاً محدداً للإصلاح وبخاصة في كتابه: "أم القرى"، و"طبائع الاستبداد".

كانت بلاد الشام تعاني أكثر من سواها من وطأة الولاة العثمانيين وفسادهم ومظالمهم، وكانت حركة النهضة العربية قد بدأت تأخذ بعض ملامحها، وتمثل ذلك في الدعوة إلى إحياء التراث العربي ونشر اللغة العربية والتعليم بها، والدعوة إلى حكم ذاتي للعرب أو إلى استقلالهم عن الدولة العثمانية. واتخذت هذه الدعوات أشكالاً شتى من العمل الصحفي والاجتماعي والثقافي وتنظيم الجمعيات والنوادي. ومن المعلوم أن هذه الدعوات توزعت في تيارات ثلاثة:

(أ) تيار دعا إلى الإصلاح داخل إطار الدولة العثمانية وعدّ الغرب الأوروبي عدواً يجب تحاشي التعامل معه. وبالتالي فإن مواجهته يجب أن تكون من خلال الرابطة الإسلامية المتمثلة بالدولة العثمانية.

(ب) تيار إصلاحية دعا إلى إعطاء العرب حكماً ذاتياً مع إجراء إصلاحات دينية ودستورية داخل الدولة العثمانية التي يجب أن تبقى رمزاً لوحدة المسلمين.

(ج) تيار دعا إلى الانفتاح على الغرب وإلغاء العلاقة بالدولة العثمانية، وعدم الاهتمام بالتراث القديم.

في ظل تلك الدعوات والتيارات ظهر عبدالرحمن الكواكبي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وكانت مدينة حلب واحدة من أهم المدن في الدولة العثمانية بسبب حجمها الاقتصادي والبشري ودورها التاريخي الطويل.

الإطار العام لفكر الكواكبي

يمكن إيجاز المحصلة الفكرية للكواكبي ضمن النقاط التالية:

(أ) فكرة الاستبداد: وفي هذا الموضوع يوضح الكواكبي أن الحكومة يجب أن تكون منتخبة ملزمة بقانون، يراقبها الشعب وينسق بين هيئاتها، كي لا تتحول إلى مستبدة ويركز على ضرورة الفصل بين التشريع والتنفيذ مع التنسيق بينهما. والاستبداد مرفوض دينياً وعقلياً، وتجب إزالته.

(ب) يفرق الكواكبي بين العقيدة الدينية المستندة إلى القرآن، وبين الاجتهادات التي تشكل مجمل التراث. ويتضح في أفكاره طابعه الأخلاقي المستند إلى الدين والعلم والتربية.

(ج) للعقل منزلة كبرى في فكر الكواكبي. وهو يؤكد أن الإسلام بني على العقل، ويؤكد أنه ضد النقل الأعمى، وهو يدعو إلى التوسع بالتعليم وتوعية الرأي العام وبث الحماسة في النفوس. في إطار عقلاني يذكرنا بابن خلدون.

(د) يدعو الكواكبي إلى حكومة دستورية محددة السلطات تحترم حرية الفرد. ويؤكد أن كل حكومة لا تخضع لمراقبة سوف تتحول إلى مستبدة.

(هـ) يفرق الكواكبي بين الإسلام والإسلامية. والإسلامية هي المنهج المشتق من الإسلام وهي منطلقه في منهجه الفكري.

(و) الكواكبي يدعو إلى ربط العلم بالعمل، وهو متفائل بالمستقبل، ذو نزعة إنسانية.

(ز) الكواكبي مفكر عربي النزعة ضمن إطار إسلامي منهجي^(١).

وتحتل القضايا الاجتماعية والتربوية مكانة بارزة في فكر الكواكبي، وهو يجعلها في سياق صلاتها بالقضايا السياسية والاقتصادية والدينية ومن هذه القضايا: المرأة والتعليم والأخلاق ومستوى المعيشة.

(١) الكواكبي، الأعمال الكاملة، تحقيق عماد جمال طحان، ص ٩٤-٩٩، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،

الإصلاح الاجتماعي والتربوي:

يمكننا تلمس جوانب الدعوة إلى الإصلاح في الميدان الاجتماعي والتربوي في سائر كتابات الكواكبي، كما يمكننا ملاحظة أنها متداخلة مع دعوته إلى الإصلاح السياسي والدين^(١):
وقد أفرد الكواكبي في كتابه "طبائع الاستبداد، فصلين:

الأول بعنوان: الاستبداد والأخلاق^(٢).

والثاني بعنوان: الاستبداد والتربية^(٣).

كما ناقش موضوع الإصلاح الاجتماعي والتربوي من خلال الحوارات التي ضمها كتابه "أم القرى". ووردت على ألسن المشاركين في ذلك المؤتمر، ولا سيما السيد الفراتي الذي هو الكواكبي نفسه، وحواراته مع العارف التاتاري والفقهاء الأفغاني^(٤) والسعيد الإنجليزي^(٥).

ثم في قانون جمعية تعليم الموحدين الذي ختم به كتابه "أم القرى" حيث ركز على موضوع الإصلاح الاجتماعي والتربوي في مقدمة القانون^(٦).

ونتبع رحلة الكواكبي الإصلاحية في ميادينها الاجتماعية والتربوية:

أولاً: في ميدان الأخلاق: يقول الكواكبي: "الاستبداد: يتصرف في أكثر الأميال الطبيعية والأخلاق الحسنة، فيضعفها أو يفسدها أو يحوها فيجعل الإنسان يكفر بنعم مولاه؛ لأنه لم يملكها حق الملك ليحمده عليها حق الحمد، ويجعله حاقداً على قومه؛ لأنهم عون لبلاء الاستبداد عليه، وفاقد حب وطنه؛ لأنه غير آمن على الاستقرار فيه، وضعيف الحب لعائلته؛ لأنه ليس مطمئناً على دوام علاقته معها، ومختل الثقة في صداقة أحبائه؛ لأنه يعلم منهم أنهم مثله لا يملكون التكافؤ، وقد يضطرون لإضرار صديقهم بل وقتله وهم

(١) تايرو، الكواكبي، المفكر الثائر، بيروت ١٩٨١م.

(٢) الكواكبي، الأعمال الكاملة، تحقيق محمد جمال طحان، ص ٤٨٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٩٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٠٥.

(٥) المصدر نفسه، ص ٣٠٦.

(٦) المصدر نفسه، ص ٣٧٦.

باكون. أسير الاستبداد لا يملك شيئاً ليحرص على حفظه؛ لأنه لا يملك مالا غير معرض للسلب، ولا شرفاً غير معرض للإهانة. ولا يملك الجاهل منه آمالاً مستقبلية ليتبعها ويشقى كما يشقى العاقل في سبيلها.

الاستبداد يسلب الراحة الفكرية فيضني الأجسام فوق ضناها بالشقاء، فتمرص العقول، ويختل الشعور على درجات متفاوتة في الناس. والعوام الذين هم قليلو المادة في الأصل قد يصل مرضهم العقلي إلى درجة قريبة من عدم التمييز بين الخير والشر في كل ما ليس من ضروريات حياتهم الحيوانية، ويصل تسفل إدراكهم إلى أن مجرد آثار الأبهة والعظمة التي يرونها على المستبد وأعوانه تبهر أبصارهم، ومجرد سماع ألفاظ التفخيم في وصفه وحكايات قوته وصولته يزيغ أفكارهم، فيرون ويفكرون أن الدواء في الداء، فينصاعون بين يدي الاستبداد انصياع الغنم بين أيدي الذئب، حيث هي تجري على قدميها جاهدة إلى مفر حتفها.

ولهذا كان الاستبداد يستولي على تلك العقول الضعيفة للعامة فضلاً عن الأجسام فيفسدها كما يريد، ويتغلب على تلك الأذهان الضئيلة فيشوش فيها الحقائق بل البدهيات كما يهوى، فيكون مثلهم في انقيادهم الأعمى للاستبداد ومقاومتهم للرشد والإرشاد، مثل تلك الهوام التي تترامى على النار، وكم هي تغالب من يريد حجزها على الهلاك. ولا غرابة في تأثير ضعف الأجسام على الضعف في العقول، فإن في المرضى وخفة عقولهم، وذوي العاهة ونقص إدراكهم، شاهداً بيناً كافياً يقاس عليه نقص عقول الإسرائاء البؤساء بالنسبة إلى الأحرار السعداء، كما يظهر الحال -أيضاً- بأقل فرق بين الفئتين من الفرق البين في قوة الأجسام وغزارة الدم واستحكام الصحة وجمال الهيئات.

ربما يستريب المطالع اللبيب الذي لم يتعب فكره في درس طبيعة الاستبداد، من أن الاستبداد المشؤوم كيف يقوم على قلب الحقائق، مع أنه إذا دقق النظر يتجلى له أن الاستبداد يقلب الحقائق في الأذهان. يرى أنه مكن بعض القياصرة والملوك الأولين من التلاعب بالأديان تأييداً لاستبدادهم فاتبعهم الناس. ويرى أن الناس وضعوا الحكومات لأجل خدمتهم، والاستبداد قلب الموضوع، فجعل الرعية خادمة للرعاة فقبلوا وقتعوا. ويرى أن الاستبداد استخدم قوة الشعب، وهي قوة الحكومة، على مصالحهم لمصالحهم فيرتضوا ويرضخوا. ويرى أنه قد قبل الناس

من الاستبداد ما ساقهم إليه من اعتقاد أن طالب الحق فاجر، وتارك حقه مطيع، والمشتكي المظلم مفسد، والنبية المدقق ملحد، والخامل المسكين صالح أمين. وقد اتبع الناس الاستبداد في تسميته النصح فضولاً، والغيرة عداوة، والشهامة عتواً، والحمية حماقة، والرحمة مرضاً، كما جاوره على اعتبار أن النفاق سياسة، والتحيل كياسة، والدناءة لطف، والندالة دماثة^(١).

وفي هذا النص للكواكبي يمكننا التوقف عند أبرز نقاطه، وهي:

(أ) الاستبداد يفسد الأخلاق ويمحوها.

(ب) الاستبداد يفسد الفكر ويفقد الإنسان القدرة على التمييز بين الخير والشر.

(ج) الاستبداد يعلم الناس النفاق وقلب الحقائق وتزويرها.

وهذه الآفات الاجتماعية تتعكس نتائجها على مجمل المجتمع؛ لأن الأخلاق التي تنمو في ظل الاستبداد تكون معاكسة للفطرة الإنسانية وتفقد المرء ثقته بنفسه، وتعلمه الرياء والخوف والاستكانة.

فالإنسان كالشجرة ينمو وفق ما يصادفه من عناية وسقيا.

يقول الكواكبي: "الأخلاق أثمار بذرها الوراثة، وتربيتها التربية، وسقياها العلم، والقائمون عليها هم رجال الحكومة، بناء عليه تفعل السياسة في أخلاق البشر ما تفعله العناية في إنماء الشجر.

نعم: الأقوام كالآجام، إن تركت مهمة تزاومت أشجارها وأفلادها، وسقم أكثرها، وتغلب قويها على ضعيفها فأهلكها، وهذا مثل القبائل المتوحشة. وإن صادفت بستانياً يهيم بقاؤها وزهورها فدبرها حسبما تطلبه طباعها، قويت وأينعت وحسنت ثمارها، وهذا مثل الحكومة العادلة. وإذا بليت ببستاني جدير بأن يسمى حطاباً لا يعنيه إلا عاجل الاكتساب، أفسدها وخربها، وهذا مثل الحكومة المستبدة. ومتى كان الحطاب غريباً لم يخلق من تراب تلك الديار وليس له فيها فخار ولا يلحقه منها عار، إنما همه الحصول على الفائدة العاجلة ولو باقتلاع الأصول، فهناك الطامة وهناك البوار. فبناء على هذا المثال يكون فعل الاستبداد في أخلاق الأمم فعل ذلك الحطاب الذي لا يرجى منه غير الإفساد^(٢).

(١) الكواكبي، الأعمال الكاملة، ص ٣٨٤ وما بعدها.

(٢) الكواكبي، الأعمال الكاملة، تحقيق محمد جمال طحان، ص ٤٨٦، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،

لا تكون الأخلاق أخلاقاً ما لم تكن ملكة مطردة على قانون فطري تقتضيه أولاً وظيفته الإنسان نحو نفسه، وثانياً وظيفته نحو عائلته، وثالثاً وظيفته نحو قومه، ورابعاً وظيفته نحو الإنسانية، وهذا القانون هو ما يسمى عند الناس بالناموس.

ويرى الكواكبي أن الأخلاق الحسنة تأتي بالنهي عن المنكر، ويكون ذلك بالنصيحة والتوبيخ. ولكن أين هم الناصحون، والاستبداد يفرز للوعظ والإرشاد منافقين نالوا الوظيفة بالتملق، وبالتالي لا يصدقهم الناس ولا يثقون بهم:

يقول الكواكبي: "أقوى ضابط للأخلاق النهي عن المنكر بالنصيحة والتوبيخ، أي بحرص الأفراد على حراسة نظام الاجتماع، وهذه الوظيفة غير مقدور عليها في عهد الاستبداد لغير ذوي المنعة من الفيورين وقليل ما هم، وقليل ما يفعلون، وقليل ما يفيد نهيهم؛ لأنه لا يمكنهم توجيهه لغير المستضعفين الذين لا يملكون ضرراً ولا نفعاً، بل ولا يملكون من أنفسهم شيئاً، ولأنه ينحصر موضوع نهيهم فيما لا تخفى قباحتها على أحد من الرذائل النفسية الشخصية فقط، ومع ذلك فالجسور لا يرى بدأ من الاستثناء المخل للقواعد العامة، كقوله: السرقة قبيحة إلا إذا كانت استرداداً منها، والكذب حرام إلا للمظلوم. والموظفون في عهد الاستبداد للوعظ والإرشاد يكونون، مطلقاً، ولا أقول غالباً، من المنافقين الذين نالوا الوظيفة بالتملق، وما أبعد هؤلاء عن التأثير؛ لأن النصيح الذي لا إخلاص فيه هو بذر عقيم لا ينبت، وإن نبت كان رياء كأصله، ثم إن النصيح لا يفيد شيئاً إذا لم يصادف أذنًا تتطلب سماعه؛ لأن النصيحة وإن كانت عن إخلاص فهي لا تتجاوز حكم البذر الحي: إن ألقى في أرض صالحة نبت، وإن ألقى في أرض قاحلة مات.

أما النهي عن المنكرات في الإدارة الحرة، فيمكن لكل غيور على نظام قومه أن يقوم به بأمان وإخلاص، وأن يوجه سهام قوارصه إلى الضعفاء والأقوياء سواء، فلا يخص بها الفقير المجروح الفؤاد، بل يستهدف -أيضاً- ذوي الشوكة والعناد. وأن يخوض في كل واد حتى في مواضع تخفيف الظلم ومزاخنة الحكام، وهذا هو النصيح الإنكاري الذي يعدي ويجدي، والذي أطلق عليه النبي عليه السلام اسم (الدين) تعظيماً لشانه فقال: "الدين النصيحة"^(١).

(١) الكواكبي، الأعمال الكاملة، تحقيق محمد جمال طحان، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٥م، ص ٤٨٧.

والخصال عند الكواكبي ثلاثة أنواع:

"الأول: الخصال الحسنة الطبيعية، كالصدق والأمانة والهمة والمدافعة والرحمة، والقبيحة الطبيعية كالرياء والاعتداء والجبانة والقسوة، وهذا القسم تضافرت عليه كل الطبائع والشرائع".

والنوع الثاني: الخصال الكمالية التي جاءت بها الشرائع الإلهية كتحسين الإيثار والعمو وتقبيح الزنا والطمع، وهذا القسم يوجد فيه ما لا تدرك كل العقول حكمته أو حكمة تعميمه، فيمتثله المنتسبون للدين احتراماً أو خوفاً.

والنوع الثالث: الخصال الاعتيادية، وهي ما يكتسبه الإنسان بالوراثة أو بالتربية أو بالألفة، فيستحسن أو يستقبح على حسب ميوله ما لم يضطر إلى التحول عنها^(١).

ثم إن التدقيق يفيد أن الأقسام الثلاثة تشترك وتؤثر بعضها في بعض، فيصير مجموعها تحت تأثير الألفة المديدة، بحيث كل خصلة منها ترسخ أو تتزلزل، حسبما يصادفها من استمرار الألفة أو انقطاعها.

أجمع الأخلاقيون على أن المتلبس بشائبة من أصول القبائح الخلقية لا يمكنه أن يقطع بسلامة غيره منها، وهذا معنى: "إذا ساءت فعال المرء ساءت ظنونه". فالمرائي -مثلاً- ليس من شأنه أن يظن البراءة في غيره من شائبة الرياء، إلا إذا بعد تشابه النشأة بينهما بعداً كبيراً، كأن يكون بينهما مغايرة في الجنس أو الدين أو تفاوت مهم في المنزلة كصعلوك وأمير كبير. ومثال ذلك الشرقي الخائن، يأمن الإفرنجي في معاملته ويثق بوزنه وحسابه ولا يأمن بابن جلدته. وكذلك الإفرنجي الخائن -أيضاً- قد يأمن الشرقي، ولا يأمن -مطلقاً- ابن جنسه. وهذا حكم صادق على عكس القضية -أيضاً- أي أن الأمين يظن الناس أمناء خصوصاً أشباهه في النشأة، وهذا معنى "الكريم يخدع" وكم يذهل الأمين في نفسه عن اتباع حكمة الحزم في إساءة الظن في مواقفه اللازمة.

إذا علمنا أن من طبيعة الاستبداد ألفة الناس بعض الأخلاق الرديئة، وأن منها ما يضعف الثقة بالنفس، علمنا سبب قلة أهل العمل وأهل العزائم في الإسراء، وعلمنا -أيضاً-

(١) الكواكبي، الأعمال الكاملة، تحقيق عماد جمال طحان، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٥م، ص ٤٨٧.

حكمة فقد الإسراء ثقتهم بعضهم ببعض. فينتج من ذلك أن الإسراء محرومون طبعاً من ثمرة الاشتراك في أعمال الحياة، ويعيشون بائسين متواكلين متخاذلين متقاعسين متفاشلين، والعاقل الحكيم لا يلومهم بل يشفق عليهم ويلتمس لهم مخرجاً. ويتبع أثر أحكم الحكماء القائل: "رب ارحم قومي فإنهم لا يعلمون"، "اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون".

وإذا كان فساد الأخلاق ناجماً عن الاستبداد. فكيف يرى الكواكبي الطريق إلى إصلاح الأخلاق الذي إذا حصل صلح معه المجتمع.

إنه يرسم لذلك مبادئ، هي:

(أ) وجوب التمسك بالدين وعدم التهاون به.

(ب) الحكمة البالغة والعزم القوي.

(ج) تقوية حس الإيمان.

(د) تنوير العقول بمبادئ الحكمة.

(هـ) إطلاق زمام العقول ليملك الإنسان إرادته ويقرر عمله.

ويشرح الكواكبي ذلك في كتابه (طبائع الاستبداد) فيقول:

"قد اتفق الحكماء الذين أكرمهم الله تعالى بوظيفة الأخذ بيد الأمم في بحثهم عن المهلكات والمنجيات، على أن فساد الأخلاق يخرج الأمم عن أن تكون قابلة للخطاب، وأن معاناة إصلاح الأخلاق من أصعب الأمور وأحوجها إلى الحكمة البالغة والعزم القوي، وذكروا أن فساد الأخلاق يعم المستبد وأعوانه وعماله، ثم يدخل بالعدوى إلى كل البيوت، لا سيما بيوت الطبقات العليا التي تتمثل بها السفلى. وهكذا يفسد الفساد وتمسي الأمة بيكيها المحب ويشمت بها العدو، وتبيت وداؤها عياء يتعاصى على الدواء.

وقد سلك الأنبياء عليهم السلام، في إنقاذ الأمم من فساد الخلاق، مسلك الابتداء أولاً بفك العقول من تعظيم غير الله والإذعان لسواه. وذلك بتقوية حس الإيمان المفطور عليه وجدان الإنسان. ثم جهدوا في تنوير العقول بمبادئ الحكمة، وتعريف الإنسان كيف يملك إرادته، أي حرته في أفكاره، واختياره في أعماله، وبذلك هدموا حصون الاستبداد وسدوا

منبع الفساد، ثم بعد إطلاق زمام العقول، صاروا ينظرون إلى الإنسان بأنه مكلف بقانون الإنسانية ومطالب بحسن الأخلاق، فيعلمونه ذلك بأساليب التعليم المقنع وبث التربية التهذيبية^(١).

ويأتي الكواكبي بمقارنة طريفة بين مفهوم الأخلاق عند الإنسان الغربي من جهة والإنسان الشرقي من جهة ثانية. فيرى أن الأول مادي جاف، والثاني عاطفي وجداني: "الغربي: مادي الحياة، قوي النفس، شديد المعاملة، حريص على الاستثثار، حريص على الانتقام، كأنه لم يبق عنده شيء من المبادئ العالية والعواطف الشريفة التي نقلتها له مسيحية الشرق. فالجرماني مثلاً: جاف الطبع، يرى أن العضو الضعيف من البشر يستحق الموت، ويرى كل فضيلة في القوة، وكل القوة في المال، فهو يحب العلم، ولكن لأجل المال، ويحب المجد ولكن لأجل المال. وهذا اللاتيني مطبوع على العجب والطيش، يرى العقل في الإطلاق، والحياة في خلع الحياء، والشرف في الترف، والكياسة في الكسب، والعز في الغلبة، واللذة في المائدة والفرش.

أما أهل الشرق فهم أدبيون، ويغلب عليهم ضعف القلب وسلطان الحب، والإصغاء للوجدان، والميل للرحمة ولو في غير موقعها، واللفظ ولو مع الخصم. ويرون العز في الفتوة والمروءة، والغنى في القناعة والفضيلة، والراحة في الأنس والسكينة، واللذة في الكرم والتحبب، وهم يفضبون ولكن للدين فقط، ويفارون ولكن على العرض فقط"^(٢).

ويختم الكواكبي حديثه عن إصلاح الأخلاق بنقطة بالغة الأهمية، هي أن التمسك بالدين لا يعني - فقط - العبادة إذا كانت قولاً بلا فعل. فالأمة التي أعمى الاستبداد بصيرتها صارت لا تعرف من أمور الدين إلا العبادة...^(٣)

"والأمر الغريب، أن كل الأمم المنحطة من جميع الأديان تحصر بلية انحطاطها السياسي في تهاونها بأمور دينها، ولا ترجو تحسين حالتها الاجتماعية إلا بالتمسك بعروة الدين تمسكاً مكيناً، ويريدون بالدين العبادة، ولنعم الاعتقاد لو كان يفيد شيئاً، لكنه

(١) الكواكبي، الأعمال الكاملة، تحقيق محمد جمال طحان، ص ٤٩٠.

(٢) الكواكبي، الأعمال الكاملة، تحقيق محمد جمال طحان، ص ٤٩١، ٤٩٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٩٤.

لا يفيد أبداً؛ لأنه قول لا يمكن أن يكون وراءه فعل، وذلك أن الدين بذر جيد لا شبهة فيه، فإذا صادف مفرساً طيباً نبت ونما، وإن صادف أرضاً قاحلة مات وفات، أو أرضاً مفراقاً هاف ولم يثمر. وما هي أرض الدين؟ أرض الدين هي تلك الأمة التي أعمى الاستبداد بصرها وبصيرتها وأفسد أخلاقها ودينها، حتى صارت لا تعرف للدين معنى غير العبادة والنسك اللذين زيادتهما عن حدهما المشروع أضر على الأمة من نقصهما كما هو مشاهد في المتسكين.

نعم، الدين يفيد الترقى الاجتماعي إذا صادف أخلاقاً فطرية لم تفسد، فينهض بها كما نهضت الإسلامية بالعرب، تلك النهضة التي نتطلبها منذ ألف عام عبثاً. ويتناول الكواكبي الموضوع نفسه في "أم القرى" في سياق حديثه عن مجمل أسباب الفتور. وذلك في الاجتماع السابع من مؤتمر أم القرى المنعقد يوم الأربعاء ٢٤ ذي القعدة ١٣١٦ هـ. ويشرح السيد الفراتي الأسباب الأخلاقية للفتور الذي يعاني منه المسلمون. ويلخص هذه الأسباب فيما يلي:

١. الاستغراق في الجهل والارتياح إليه.
٢. استيلاء اليأس من اللحاق بالفائزين في الدين والدنيا.
٣. الإخلاق إلى الخمول ترويحاً للنفس.
٤. فقد التواضع.
٥. انحلال الرابطة الدينية الاحتسابية.
٦. فساد التعليم والوعظ والخطابة والإرشاد.
٧. فقد التربية الدينية والأخلاقية.
٨. فقد قوة الجمعيات وثمره دوام قيامها.
٩. فقد قوة المالية الاشتراكية بسبب التهاون في الزكاة.
١٠. ترك الأعمال بسبب ضعف الآمال.
١١. إهمال طلب الحقوق العامة جنباً وخوفاً من التخاذل.
١٢. غلبة التخلق بالتملق تزلفاً وصغاراً.

١٣. تفضيل الارتزاق بالجندي والخدمة الأميرية على الصنائع.
١٤. توهم أن علم الدين قائم في العمائم وفي كل ما سطر في كتاب.
١٥. معاداة العلوم العالية ارتياعاً للجهالة والسفالة.
١٦. التباعد المكاشفات والمفاوضات في الأمور العامة.
١٧. الذهول عن تطرق الشرك وشأته^(١).

ويشرح السيد الفراتي أن هذه الأسباب موجودة بصورة خاصة في السلطنة العثمانية بسبب الخلل في السياسة والإدارة. وهي موجودة كذلك في بقية الممالك الإسلامية بشكل يقل أو يكثر.

أما في الاجتماع الثامن الذي عقد في اليوم التالي، أي يوم الخميس ٢٥ ذي القعدة ١٣١٦ هـ. فقد أوضح السيد الفراتي (الكواكبي) أن أعظم أسباب الفتور في المسلمين إنما هي غرارتهم -أي غفلتهم- ويمثل لذلك ببعض الأقوال الخاطئة السائرة على الألسن، من مثل: المؤمن مصاب - إن الله إذا أحب عبده ابتلاه- إن أكثر أهل الجنة البله^(٢).

ويشرح الكواكبي هذه الفرارة، فيقول:

ومن (الفرارة) توهمنا أن شؤون الحياة سهلة بسيطة، فنظن أن العلم بالشيء إجمالاً ونظرياً بدون تمرّن عليه يكفي للعمل به، فيقدم أحدنا -مثلاً- على الإمارة بمجرد نظره في نفسه أنه عاقل مدبّر قبل أن يعرف ما هي الإدارة علماً، ويتمرّن عليها عملاً، ويكتسب فيها شهرة تعينه على القيام بها.

ويقدّم الآخر منّا على الاحتراف مثلاً ببيع الماء للشرب، بمجرد ظنّه أنّ هذه الحرفة عبارة عن حمله قربة وقدحاً وتعرّضه للناس في مجتمعاتهم، ولا يرى لزوماً لتلقّي وسائل اتقان ذلك عمّن يرشده مثلاً إلى ضرورة النظافة له في قريته وقدحه وظواهر هيئته ولباسه، وكيف يحفظ برودة مائه وكيف يستبرقه ويوهم بصفائه ليشهّي به، ومتى يغلب العطش ليقصد المجتمعات، ويتحرّى منها الخالية له عن المزاحين، وكيف يتزلف للناس ويوهم

(١) الكواكبي، الأعمال الكاملة، تحقيق محمد جمال طحان، ص ٣٦٠، ٣٦١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٦٨.

بلسان حاله أنه محترف بالإسقاء كفاً لنفسه عن السؤال. إلى نحو هذا من دقائق إتقان الصنعة المتوقف عليها نجاحه فيها، وإن كانت صنعته بسيطة حقيرة.

ومن (الفرارة) ظننا أن الكياسة في "أدري وأقدر" جواباً للنفس في مقاصد كثيرة شتى. والحقيقة أن الكياسة لا تتحقق في الإنسان إلا في فن واحد فقط يتوَّع فيه فيتقنه حق الاتقان كما قال تعالى: ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾. فالعاقل من يتخصص بعمل واحد ثم يجيب نفسه عن كل شيء غيره ((لا أدري ولا أقدر))، لأن الأول يتكلف أعمالاً لا يحسنها فتفسد عليه كلها، والثاني يتحرى لكل عمل لزم له من يحسنه فتتنظم أموره ويهنأ عيشه.

فالملك - مثلاً - وظيفته العامة انتخاب وزير يثق بأخلاقه، ويعتمد على خبرته في انتخاب بقية الوزراء والسيطرة عليهم في الكليات.

فالملك مهما كان عاقلاً حكيماً لا يقدر على إتقان أكثر من وظيفته المذكورة. فالملك إذا تغرر وتنزل للتدخل في أمور السياسة أو الإدارة الملكية أو الأمور الحربية أو القضاء، فلا شك أنه يكون كرب بيت يداخل طباخه في مهنته، ويشارك بستانيه في صنعته، فيفسد طعامه ويبور بستانه، فيشتكي ولا يدري أن آفته من نفسه.

ومن "الفرارة" اللوث في الأمور، أي تركها بلا ترتيب، والحكمة قاضية على كل إنسان، ولو كان زاهداً منفرداً في كهف جبل، فضلاً عن سائس رعية أو صاحب عائلة، أن يتخذ ترتيباً في شؤونه، وذلك بأن يرتب:

أولاً: أوقاته حسب أشغاله، ويرتب أشغاله حسب أوقاته. والشغل الذي لا يجد له وقتاً كافياً يهمله بالكلية أو يفوضه لمن يفي حق القيام به عنه.

ثانياً: يرتب نفقاته على نسبة المضمون من كسبه، فإن ضاق دخله عن المبرم من خرجه يغير طراز معيشته، ولو بالتحويل مثلاً من بلده الغالية الأسعار أو التي مظهره فيها يمنعه من الاقتصاد إلى حيث يمكنه ترتيبها على نسبة كسبه.

ثالثاً: يرتب تقليل عائلة عائلته عند أول فرصة، ملاحظاً إراحة نفسه من الكد في دور العجز من حياته، فيربي أولاده ذكوراً وإناثاً على صورة أن كلاً منهم متى بلغ أشده يمكنه أن يستغني عنه بنفسه، معتمداً على كسبه الذاتي ولو في غير وطنه.

رابعاً: يرتب أموره الأدبية على نسبة حالته المادية، أعني يرتب أموره الدينية ولذاته وشهواته الجسمية ترتيباً حسناً، فلا يحمل نفسه منها ما لا تطبيق للاستمرار عليه.
خامساً: يرتب ميله الطبيعي للمجد والتعالي على حسب استعداده الحقيقي. فلا يترك نفسه تتناول إلى مقامات ليس من شأن قوته المادية أن يبلغها إلا بمحض الحظ أي الصدفة.
وخلاصة البحث أن الفرارة من أقوى أسباب الفتور، وقد أطلت في وصفها وإيضاحها ليتأكد عند السادة الإخوان أن إزالة أسباب الفتور الشخصي ليس من عقيمات الأمور.

ثانياً: في ميدان قضايا المرأة:^(١)

يبحث الكواكبي موضوع واقع المرأة من خلال حديثه في كتابه "أم القرى" عن أسباب انحلال الأخلاق والفتور والفرارة والجهل:^(٢)

- (أ) إن ترك النساء جاهلات يقود إلى انحلال أخلاق المجتمع.
- (ب) في تاريخنا كانت النساء يتلقين العلم ويشاركن فيه (عائشة - كثير من الصحابيات - كثير من العالمات).
- (ج) يخطئ من يظن أن الجهل يحفظ عفة النساء. فالجاهلة أجسر على الفجور من العالمة.
- (د) إن جهل النساء يترك أثراً سيئاً في تربية الأولاد.
- (هـ) إن جهل النساء ينعكس سلباً على علاقتهن بأزواجهن.
- (و) المرأة أقدر من الرجل وليست أضعف منه.
- (ز) المرأة حينما تسيرو وراء الرجل فلكي تسوقه لا لكي تتبعه.
- (ح) في المرأة دهاء أكثر مما لدى الرجل.
- (ط) يؤيد الكواكبي حجاب المرأة وتفرضها لتدبير المنزل. ويربط بين الحجاب ومكارم الأخلاق.

كما يتحدث الكواكبي عن ضرورة التكافؤ في الزواج بين الرجل والمرأة، لأن الرجل ينجر إلى أخلاق زوجته. وكثير من أمراء المسلمين فسدت أخلاقهم بسبب أمهاتهم أو زوجاتهم:

(١) تابيرو، الكواكبي المفكر الثائر، ص ٣٦٨.

(٢) الكواكبي، الأعمال الكاملة، تحقيق محمد جمال طحان، ص ٣٧٠.

"والصينيون، وهم أقدم البشر مدنية، التزموا تصفير أرجل البنات بالضغط عليها لأجل أن يعسر عليهن المشي والسعي في إفساد الحياة الشريفة. ذلك الشرف الذي هو من أهم مقاصد الشرقيين، بخلاف الغربيين الذين لا يهتمهم غير التوسع في الماديات والملذات. وقد أمرت الشريعة برعاية الكفاءة في الزوج، وذلك -أيضاً- مرحمة بالرجال. وأكثر الأئمة المجتهدين أغفلوا لزوم تحري الكفاءة في جانب المرأة للرجل، وأوجبوا أن يكون هو فقط كفواً لها كي لا تهلكه بفخارها وتحكمها. على أن لرعاية الكفاءة في المرأة للرجل -أيضاً- موجبات عائلية مهمة، منها: التخير للاستسلام والتخير لتربية النسل، وللتساهل في ذلك دخل عظيم في انحلال الأخلاق في المدن، لأن التزوج بمجهولات الأصول أو الأخلاق، أو بسافلات الطباع والعادات، أو بالغربيات جنساً أو الرقيقات، مفسد شتى. لأن الرجل ينجر طوعاً أو كرهاً لأخلاق زوجته، فإن كانت سافلة يتسفل لا محالة، وإن كانت غريبة بغضته في أهله وقومه، وجرته إلى موالة قومها والتخلق بأخلاقهم. ولا شك أن هذه المفسدة تستحكم في الأولاد أكثر من الأزواج.

وربما كان أكبر مسبب لانحلال أخلاق الأمراء من المسلمين أتاهم من جهة الأمهات والزوجات السافلات، إذ كيف يرجى من امرأة نشأت سافلة رقيقة ذليلة أن تترك بعلمها، وهو في الغالب أطوع لها من خلخالها، أن يجيب داعي شهامة أو مروءة؟ أو أن تغرس في رؤوس صبيبتها آميلاً سامية، أو تحمسهم على أعمال خطيرة؟ كلا لا تفعل ذلك أبداً. إنما تفعله الشريفات اللاتي تجدن في أنفسهن عزة وشهامة، وهذا هو سر أعظم الرجال لا يوجدون غالباً إلا من أبناء ويعول نسوة شريفات أو بيوت قروية. وهذا هو سبب حرص أمراء العرب والإفرنج على شرف الزوجات"^(١).

ثالثاً: ميدان الناشئة والشباب

يرى الكواكبي قبل أكثر من قرن من اليوم أن هناك شباناً يحبون "التفرنج" ويقلدون الغرب بسطحية. بينما هناك شبان يحافظون على دينهم وكرامتهم.

(١) الكواكبي، الأعمال الكاملة، ص ٣٧١.

وفي سياق هذين النموذجين من الناشئة والشبان يوضح الكواكبي الصفات التي

يريدها لدى شباب عصره وهي:

(أ) النبل والجهد والعمل.

(ب) العاطفة الدينية العميقة.

(ج) العاطفة الوطنية.

يقول الكواكبي: "وليعلم أن الناشئة الذين تعقد الأمة آمالها بأحلامهم عسى يصدق منها شيء، وتتعلق الأوطان همتهم عساهم يأتون فعلاً مذكوراً، هم أولئك الشباب ومن في حكمهم المحمديون المهذبون، الذين يقال فيهم أن شباب رأي القوم عند شبابهم الذين يفتخرون بدينهم فيحرصون على القيام بمبانيه الأساسية نحو الصلاة والصوم، ويتجنبون مناهيه الأصلية نحو الميسر والمسكرات. الذين لا يقصرون بناء القصور الفخر عظام نخرها الدهر، ولا يرضون أن يكونوا حلقة ساقطة بين الأسلاف والإخلاف، الذين يعلمون أنهم خلقوا أحراراً فيأبون الذل والإسار. الذين يودون أن يموتوا كراماً ولا يحيون لثاماً، الذين يجتهدون أن ينالوا حياة رضية، حياة قوم كل فرد منهم سلطان مستقل في شؤونه لا يحكمه غير الدين، وشريك أمين لقومه يقاسمهم ويقاسمونه الشقاء والهناء، وولد بار بوطنه لا يبخل عليه بجزء طفيف من فكره ووقته وماله. الذين يحبون وطنهم حب من يعلم أنه خلق من ترابه. الذين يعيشون الإنسانية ويعلمون أن البشرية هي العلم، والبهيمية هي الجهالة. الذين يعتبرون أن خير الناس أنفعهم للناس. الذين يعرفون أن القنوط وباء الآمال والتردد وباء الأعمال. الذين يفقهون أن القضاء والقدر هما السعي والعمل. الذين يوقنون أن كل ما على الأرض من أثر هو من عمل أمثالهم البشر، فلا يتخيلون إلا المقدر ولا يتوقعون من الأقدار إلا خيراً.

وأما الناشئة المتفرنجة فلا خير فيهم لأنفسهم فضلاً عن أن ينفعوا أقوامهم وأوطانهم شيئاً وذلك لأنهم لا خلاق لهم، تتجاذبهم الأهواء كيف شاءت، لا يتبعون مسلكاً ولا يسيرون على ناموس مطرد، لأنهم يحكمون الحكمة فيفتخرون بدينهم ولكن لا يعملون به تهاوناً وكسلاً. ويرون غيرهم من الأمم يتباهون بأقوامهم ويستحسنون عاداتهم ومميزاتهم فيميلون لمناظرتهم، ولكن لا يقوون على ترك التفرنج كأنهم خلقوا أتباعاً. ويجدون الناس يعيشون أوطانهم فيندفعون للتشبه بهم في التشبيب والإحساس فقط، دون التشبث بالأعمال التي يستوجبها الحب الصادق.

والحاصل أن شؤون الناشئة المتفرجة -أيضاً- لا تخرج عن تذبذب وتلون ونفاق، يجمعها وصف: "لا خلاق لهم". والواهنة خير منهم، متمسكون بالدين ولو رياء، وبالطاعة ولو عمياء، على أنه يوجد في المتفرجة أفراد غيرون كالراسخين من أحرار الأتراك، الملتهين غيرة تقتضي احترام مزيتهم"^(١).

والكواكبي يعيب على رجال الدين عدم إحساسهم بالمسؤولية وتقصيرهم في توجيه الناشئة نحو المثل والقيم الأخلاقية.

وهو يشتد في حملته على هؤلاء الواهنة من رجال السياسة وشيوخ دين وسراة قوم متخاذلين:^(٢)

وهؤلاء الواهنة يحق لهم أن تشق عليهم مفارقة حالات ألفوها عمرهم، كما قد يألف الجسم السقم فلا تلذ له العافية. فإنهم منذ نعومة أظفارهم تعلموا الأدب مع الكبير، يقبلون يده أو ذيله أو رجله، وألفوا الاحترام فلا يدوسون الكبير ولو داس رقابهم. وألفوا الثبات ثبات الأوتاد تحت المطارق. وألفوا الانقياد ولو إلى المهالك. وألفوا أن تكون وظيفتهم في الحياة دون النبات، ذاك يتناول وهم يتقاصرون، ذاك يطلب السماء وهم يطلبون الأرض كأنهم للموت مشتاقون.

وهكذا طول الألفة على هذه الخصال قلب في فكرهم الحقائق، وجعل عندهم المخازي مفاخرًا، فصاروا يسمون التصاغر أدبًا، والتذلل لطفًا، والتملق فصاحة، واللكنة رزانة، وترك الحقوق سماحة، وقبول الإهانة تواضعًا، والرضاء بالظلم طاعة. كما يسمون دعوى الاستحقاق غرورًا، والخروج عن الشأن الذاتي فضولًا، ومد النظر إلى الغد أملًا، والإقدام تهورًا، والحمية حماقة، والشهامة شراسة، وحرية القول وقاحة، وحب الوطن جنونًا.

رابعاً- في ميدان العلاقات الاقتصادية

يتحدث الكواكبي خلال الاجتماع الثالث، يوم الخميس ١٨ ذي القعدة ١٣١٦ هـ، وعلى لسان الفقيه الأفغاني فيقول:^(٣)

(١) الكواكبي، الأعمال الكاملة، تحقيق محمد جمال طحان، ص ٣٧٢، ٣٧٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٧٢.

(٣) الكواكبي، الأعمال الكاملة، تحقيق محمد جمال طحان، ص ٣٠٥.

وذكر أن الداء العام فيما يراه هو الفقر الآخذ بالزمام؛ لأن الفقر قائد كل شر، ورائد كل نحس، فمنه جهلنا، ومنه فساد أخلاقنا، بل منه تشتت آرائنا حتى في ديننا، ومنه فقد إحساسنا، ومنه إلى كل ما نحن فيه، أو نتوقع أننا سنوافيه.

فهذه فطرتنا، لا نقص فيها عن غيرنا، وعددنا كثير، وبلادنا متواصلة، وأرضنا مخصبة، ومعادنا غنية، وشرعنا قويم، وفخارنا قديم، فلا ينقصنا عن الأمم الحية غير القوة المالية، التي أصبحت لا تحصل إلا بالعلوم والفنون العالية، وهذه لا تحصل إلا بالمال الطائل، فوقعنا في مشكل الدور، وعسى أن نهتدي لفكه سبيلاً، وإلا فيحقيق بنا ناموس فناء الضعيف في القوي وبيننا الجاهل والعالم.

ومن أعظم أسباب فقر الأمة: أن شريعتنا مبنية على أن في أموال الأغنياء حقاً معلوماً للبائس والمحروم، فيؤخذ من الأغنياء ويوزع على الفقراء، وهذه الحكومات الإسلامية، قد قلبت الموضوع، فصارت تجبي الأموال من الفقراء والمساكين وتبذلها للأغنياء.

والشريعة الإسلامية، هي أول شريعة ساقطت الناس والحكومات لأصول البودجة^(١) المؤسس عليه فن الاقتصاد المالي، الإفرادي والسياسي.

ويخيل لي أن سبب هذا الفتور، الذي أخل حتى في الدين، هو فقد الاجتماعات والمفاوضات، وذلك أن المسلمين في القرون الأخيرة قد نسوا بالكلية حكمة تشريع الجماعة والجمعة وجمعية الحج، وترك خطبائهم ووعاظهم، خوفاً من أهل السياسة، التعرض للشؤون العامة. كما أن علماءهم صاروا يسترون جنبهم بجعلهم التحدث في الأمور العمومية والخوض فيها من الفضول والاشتغال بما لا يفني، وأن إتيان ذلك في الجوامع من اللغو الذي لا يجوز، وربما اعتبروه من القيبة أو التجسس أو السعي بالفساد، فسرى ذلك إلى أفراد الأمة، وصار كل شخص لا يهتم إلا بخويصة نفسه وحفظ حياته في يومه، كأنه خلق أمة واحدة، وسيموت غداً، جاهلاً أن له حقوقاً على الجامعة الإسلامية والجامعة البشرية، وأن لهما عليه مثلها، زاهلاً عن أنه مدني بالطبع، لا يعيش إلا بالاشتراك، ناسياً أو جاهلاً أوامر الكتاب والسنة له بذلك (مرحى).

ثم بتوالي القرون والبطون على هذه الحال، تأصل في الأمة فقد الإحساس، إلى درجة أنه لو خربت هذه الكعبة، والعياذ بالله تعالى، لما تقطبت الحياة أكثر من لحظة، ولا أقول لما زاد

(١) البودجة: الميزانية.

تلاطم الناس على سبعة أيام، كما ورد في الأثر، لأن المراد بأولئك الناس أهل خزينة العرب إذ ذاك.

ويضع الكواكبي في بحث "الاستبداد والمال" أصولاً وفق منهجيته التي يدعوها (الإسلامية) لإصلاح الاقتصادي، وخلصتها:

(أ) تقرير أنواع العشور والزكاة وتقسيمها على أنواع المصارف العامة وأنواع المحتاجين حتى المدنيين.

(ب) تقرير أحكام تمنع التواكل في الارتزاق وتلزم كل فرد بالعمل.

(ج) ترك الأراضي الزراعية ملكاً لعامة الأمة يعمل بها الفلاحون ويؤدون إلى بيت المال ضريبة الخمس.

(د) وضع قواعد شرعية عامة وجزئية والطلب من الحكومة أن تنفذها.

(هـ) أن يكون إحراز المال بوجه مشروع ومن غير احتكار.

(و) أن لا يتجاوز المال قدر الحاجة^(١).

خامساً- في ميدان التعليم:

أفرد الكواكبي في قانون الجمعية الذي أقر يوم الاثنين ٢٩ ذي القعدة ١٣١٦ هـ عشر قضايا لمعالجة موضوع التعليم. كما تحدث في مقدمة القانون عن حالة الفتور والجهل وتهاون العلماء وضرورة التتوير بالعلم والتعليم.

وهذه أمثلة من آراء الكواكبي في الميدان التربوي:

"التربية ملكة تحصل بالتعليم والتمرين والقودة والاقبتباس، فأهم أصولها وجود المربين وأهم فروعها وجود الدين وجعلت الدين فرعاً لا أصلاً، لأن الدين علم لا يفيد العمل إذا لم يكن مقرونًا بالتمرين. وهذا هو سبب اختلاف الأخلاف من علماء الدين عند الإسلام عن أمثالهم من البراهمة والنصارى، وهو سبب إقبال المسلمين في القرن الخامس وفيما بعده، على قبول أصول الطرائق التي كانت لباً محضاً لما كانت تعليمًا وتمريناً أي تربية للمريدين، ثم خالطها القشر، ثم صارت قشراً محضاً، ثم صار أكثرها لهواً أو كفراً.

(١) الكواكبي، الأعمال الكاملة، ص ٤٨١، ٤٨٢.

والاستبداد ربح صرصر فيه إعصار يجعل الإنسان كل ساعة في شأن، وهو مفسد للدين في أهم قسميه أي الأخلاق، وأما العبادات منه فلا يمسه؛ لأنها ثلاثه في الأكثر. ولهذا تبقى الأديان في الأمم المأسورة عبارة عن عبادات مجردة صارت عادات فلا تفيد في تطهير النفوس شيئاً، ولا تنهى عن فحشاء ولا منكر لفقد الإخلاص فيها تبعاً لفقده في النفوس، التي ألفت أن تتلجأ وتتلوى بين يدي سطوة الاستبداد في زوايا الكذب والرياء والخداع والنفاق، ولهذا لا يستغرب في الأسير الأليف تلك الحال، أي الرياء، أن يستعمله أيضاً مع ربه، ومع أبيه وأمه ومع قومه وجنسه، حتى ومع نفسه.

التربية تربية الجسم وحده إلى سنتين، هي وظيفة الأم أو الحاضنة، ثم تضاف إليها تربية النفس إلى السابعة، وهي وظيفة الأبوين والعائلة معاً، ثم تضاف إليها تربية العقل إلى البلوغ، وهي وظيفة المعلمين والمدارس، ثم تأتي تربية القدوة بالأقربين والخطأ إلى الزواج، وهي وظيفة الصدفة، ثم تأتي تربية المقارنة، وهي وظيفة الزوجين إلى الموت.

ولا بد من أن تصحب التربية من بعد البلوغ، تربية الظروف المحيطة، وتربية الهيئة الاجتماعية، وتربية القانون أو السير السياسي، وتربية الإنسان نفسه.

"الحكومات المنتظمة، هي التي تتولى ملاحظة تسهيل تربية الأمة من حين تكون في ظهور الآباء، وذلك بأن تسن قوانين النكاح، ثم تعني بوجود القابلات والملقحين والأطباء، ثم تفتح بيوت الأيتام للقطاء، ثم تعد المكاتب والمدارس للتعليم من الابتدائي الجبري إلى أعلى المراتب، ثم تسهل الاجتماعات وتمهد المسارح وتحمي المنتديات، وتجمع المكتبات والآثار، وتقيم النصب المذكرات، وتضع القوانين المحافظة على الآداب والحقوق، وتسهر على حفظ العادات القومية، وإنماء الاحساسات المالية، وتقوي الآمال، وتيسر الأعمال، وتؤمن العاجزين فعلاً عن الكسب من الموت جوعاً، وتدفع سليمي الجسم إلى الكسب ولو في أقصى الأرض، وتحمي الفضل وتقدر الفضيلة. وهكذا تلاحظ كل شؤون المرء ولكن من بعيد، كي لا تخل بحريته واستقلاله الشخصي، فلا تقرب منه إلا إذا جنى جرماً لتعاقبه، أو مات لتواريه".

"التربية علم وعمل. وليس من شأن الأمم المملوكة شؤونها، أن يوجد فيها من يعلم التربية ولا من يعلمها. حتى إن الباحث لا يرى عند الإسراء علماء في التربية مدفوناً في الكتب فضلاً عن الأذهان. أما العمل فكيف يتصور وجوده بلا سبق عزم، وهو بلا سبق يقين، وهو بلا سبق علم. وقد ورد في الأثر "النية سابقة العمل". وورد في الحديث: "إنما الأعمال بالنيات".

بناء عليه ما أبعد الناس المفضوبة إرادتهم عن توجيه الفكر إلى مقصد مفيد كالتربية، أو توجيه الجسم إلى عمل نافع كتمرين الوجه على الحياء والقلب على الشفقة".

"ثم أن التربية التي هي ضالة الأمم وفقدتها هو المصيبة العظمى، التي هي المسألة الاجتماعية حيث الإنسان يكون إنساناً بتربيته، وكما يكون الآباء يكون الأبناء، وكما تكون الأفراد تكون الأمة، والتربية المطلوبة هي التربية المرتبة على إعداد العقل للتمييز، ثم على حسن التفهيم والإقناع، ثم على تقوية الهمة والعزيمة، ثم على التمرين والتعويد، ثم على حسن القدوة والمثال، ثم على المواظبة والإتقان، ثم على التوسط والاعتدال، وأن تكون تربية العقل مصحوبة بتربية الجسم، لأنهما متصاحبان صحة واعتلالاً، فإنه يقتضي تعويد الجسم على النظافة وعلى تحمل المشاق، والمهارة في الحركات، والتوقيت في النوم والغذاء والعبادة، والترتيب في العمل وفي الرياضة والراحة، وأن تكون تلكما التريبتين مصحوبتين -أيضاً- بتربية النفس على معرفة خالقها ومراقبته والخوف منه. فإذا كان لا مطمع في التربية العامة على هذه الأصول بمانع طبيعة الاستبداد، فلا يكون لعقلاء المبتلين به إلا أن يسعوا أولاً وراء إزالة المانع الضاغط على العقول، ثم بعد ذلك يعتنوا بالتربية حيث يمكنهم حينئذ أن ينالوها على توالي البطون والله الموفق"^(١).

وهكذا يبرز موضوع التربية والتعليم واحداً من أبرز الموضوعات التي شغلت الكواكبي في حياته وكتاباتة، مؤكداً على مدى ما يلحقه الاستبداد من ضرر بالعملية التربوية، ومؤكداً دور العلم في تحرير الشعوب، ودور العلم في القضاء على الاستبداد. وكان الكواكبي يرى أن العلوم الدينية لا تكفي وحدها بل لا بد من ردها بالعلوم الفلسفية والطبيعية والأدبية في سبيل تنوير أذهان الناشئة^(٢).

سادساً- في المنهج والبرنامج:

لم يكتف الكواكبي بوصف الداء وشرح أسبابه وأعراضه بل أنه انتقل إلى رسم العلاج بمنهجية عالية ودقة، مستخدماً في ذلك لغة رصينة أكاديمية، وبرنامجاً واعياً للإصلاح يشمل ميادين المجتمع.

(١) تابيرو، الكواكبي، ص ١٨٣-١٨٥.

(٢) الكواكبي، الأعمال الكاملة، تحقيق محمد جمال طحان، ص ٤٩٦-٥٠٤.

وقد رأى الكواكبي أن الاستبداد هو على العلل في ميادين الفكر والسياسة والتربية والخلاق والمال. ولكنه لم يكتف بموقف البكاء على الأطلال بل أنه شخص لنا المرض وشرع يصف العلاج على الفور.

ولعنة الاستبداد تقابلها لدى الكواكبي بدائل دعا إليها تتمثل في:

(أ) المساواة،

(ب) الحرية،

(ج) العدالة،

(د) الشورى الدستورية^(١).

وللوصول إلى هذه البدائل الإيجابية، لا بد من توفر مبادئ للعمل خلاصتها:

١. إن الأمة لا يشعر كلها أو أكثرها بآلام الاستبداد لا تستحق الحرية.

٢. الاستبداد لا يقاوم بالشدة بل بترقي الأمة في الإدراك والإحساس والتعليم والتحميس.

٣. قبل مقاومة الاستبداد يجب تهيئة البديل^(٢).

والبديل الشامل لكل هذه الأسس والمبادئ هو المنهج الذي يسميه الكواكبي:

"الإسلامية". وهي البديل العام عن الاستبداد في شتى ميادين الحياة والفكر، وخلاصة رأي الكواكبي في هذا المجال مطالبته بنظام حكومي قانوني قائم على أساس الشورى مستمد من الشريعة، هذه الشريعة التي تحمل أفضل القواعد الأساسية في السياسة والتربية والاقتصاد وكل شؤون الحياة. ونموذج ذلك دولة الرسول الكريم والخلفاء الراشدين. وهكذا فالإسلامية تشمل بدائل المساواة والحرية والعدالة والشورى إلى جانب التكافل الاجتماعي^(٣).

لقد قدم الكواكبي برنامجاً للإصلاح تفوق في عصره على البرامج التي كانت

مطروحة. ولا يزال مشروعه حياً بعد أكثر من قرن من طرحه. ولا زلنا بحاجة إلى استحضار

الكواكبي في حالة الانهيار التي نعيشها.

(١) الكواكبي، الأعمال الكاملة، مصدر سابق، ص ٣٨٢.

(٢) تابيرو، الكواكبي، ص ١٦٤.

(٣) محمد جمال طحان، بدائل الاستبداد، ص ٣٦٨.